لقاوة

د. عمر العماس

حتى سبعينات القرن الماضي، كانت إمتحانات الشهادة الصغرى، **شهادة النقل من (المدارس الوسطى)، أو مدارس ما كان يعرف ب .. (الثانوي العام)**،إلى المدارس الثانوية، كانت تلك الامتحانات موحدة، أي أنها تقام في نفس التوقيت، في جميع المراكز، بكل أنحاء السودان.

كان يوكل أمر القيام بها، وتنفيذها على أرض الواقع، إدارياً وفنياً، إلى معلمي المرحلة الثانوية، الذين يعملون في مدارس المحافظة **(الإسم السابق للمعتمديه)**. كنت يومها أعمل بمدرسة **خورطقت الثانوية،الأبيض، سألني أحد أولاد العاصمة سؤالاً محيراً وقال:**

(إنت شغال في مدرسة الخور الطاقي؟)

فأجبته:

(أنا ذاتي الطقيت الخور).

أسند إليّ **أنا** وأستاذي **إسحاق إبراهيم الحاج**، (رباطابي على السكين! **لا يعرف إلا أن يقول الحق في غير ما تردد)**، أمر إجراء الامتحانات بمدرسة **(لقاوة)** عند حدود محافظة كردفان مع محافظة دارفور، في منطقة سهلية تشغل الحيز الممتد بعد إجتياز سلسلة جبال النوبة الغربية.

حزمنا متاعنا، وتسلمنا **الطرد**، الذي يحوي امتحانات المواد المختلفة جميعاً، قمنا بوضعه داخل سيارة **ال (MERCURY)**، ذات **القبينة** الواحدة، فأصبحنا أربعة داخل تلك **(القبينة) أنا** وزميلي **الأستاذ إسحق** والسائق **موسى وطرد الامتحانات**، الذي كنا نكن له كل الاحترام والتبجيل، ونوليه أهمية فوق أهميتنا، نحن بني البشر، خوفاً عليه، وخوفاً علينا في ذات الوقت، من المقادير، ونحن نتجه إلى بقعة مجهولة بالنسبة لنا، لا ندرك كنهها، ولا كنه ما يخبئه القدر لنا، مع ما يطالعنا، ويناوشنا به عظم المسئولية، التي انبرينا لها وتحملناها، ولم يكن لنا من فعل يفعل،

www.omerelamma.com

إلاّ السمع والطاعة في تنفيذ الأمر، وكان ذلك ديدن المعلمين كافة من خريجي **معهد المعلمين العالي** وغيرهم من المعلمين.

في صندوق السيارة الخلفي كان يجلس **المساعد**، وهو شاب صغير السن لا يتجاوز عمره السادسة عشر، كان هادئاً غير عابئ بما ألقي علينا من مسئولية، همه يتعلق بسلامة عربته في رحلة الذهاب والإياب، وما سيقابله من مشقة أو متعة أثناء الطريق.

السائق موسى من قبائل **الفلاته** الذين استوطنوا مدينة **الأبيض** من قديم، فهو يعرفها جيداً، إلا أنّ جل معرفته يتمركز في **حي الرديف وسوق أبجهل**، مما لا يفيدنا كثيراً في رحلتنا، ذات الأهمية، التي تتعلق بمصير صبية أخالهم يستعجلون وصولنا، بتوجس مزعج، وتفاؤل ممزوج بالقلق.

خرجنا من مدينة **الأبيض** وصوبنا نحو مدينة **الدلنج**، لاحظت أثناء ذلك وأنا بجوار السائق **موسى**، أنه كان يتعامل مع عجلة القيادة **(الدركسون)** بصعوبة، استصحبها فراغ كبير قد يصل إلى أكثر من تسعين درجة، حتى يتمكن من توجيه **(لف)** العجل **(اللستك)**، كي يدخل في مجرى السير **(الطريق الذي تسلكه السيارات)** في فضاء رملي واسع ممتد وغير معبد.

ساعتها تذكرت السائق**(موسى عبد الغفار)**، في كتاب المطالعة الأولية في خمسينات القرن الماضي، الذي كان يقود اللوري **(الفورد)** المعروف، فانتابني عدم الإطمئنان للرحلة، خاصة بعد ما بدأ **موسى** في طرح الأسئلة على العابرين في الأودية:

(باله تريق اللقاوة من وين؟)

يقصد **موسى:**

(باله طريق لقاوة من وين؟)

فثبت لي:

- **أنّ موسى لايعرف طريق لقاوة.**
- **أنّ موسى لا يعرف قدرات سيارته.**
- **أنّ موسى لا يعرف تضاريس الطريق.**

www.omerelamin.com

- **أنّ موسى سواق دركسون فقط.**
- **أنّ لغة موسى غير سليمة فهو يضيف أحرفاً ويقلب أخرى عند التحدث.**

كل ذلك لا يبشر بالخير، فسألت الله كثيراً، أن يسترنا في هذه الرحلة لا سيما أنها الثانية في المحافظة بالنسبة لي.

وصلنا مدينة **الدلنج** في منتصف النهار، وتوجهنا من فورنا إلى مكتب السيد/ **مدير التعليم**، وكان هدفنا:

- **إمكانية تغيير السيارة.**
- **تزويدنا بوقود إضافي.**
- **ضم أحد خبراء طريق لقاوة لمجموعتنا.**

لم يستجب السيد/ **مدير التعليم** للطلب الأول، واستجاب للطلبين الآخرين، فتزودنا بالوقود وانضم إلى مجموعتنا العم **عبد الرحمن**، كخبير. تحركنا سالكين طريق **(والي)** وهو أحد خيارات العم **عبد الرحمن.**

كانت الشمس تستعد للرحيل من أمامنا، فتتسلط الأشعة على أنظارنا مشعة وحارقة، غرباً كنا نتجه وأمامنا تتعالى قمم جبلية شاهقة، تتعثر الأشعة الشمسية في اختراقها، في سبيل الوصول إلينا، فظللنا ننجو من الحر تارة، وتارة نستظل بظل ينوي الرحيل عنا.

يذكرني تعثر الأشعة الشمسية في الاختراق قول الشاعر/ **الناصر قريب الله** في غابات **أم بادر** :

وتشهت ثواقب النور ملهىً
بين أحضان مائها السلسال
بينما جرت الثعابين اجساداً
لها في الجزوع جر الحبال

غابت الشمس تماماً وقد توسطنا الجبال التي أطلت علينا من كل صوب، باسقة عملاقة، تأبى الانحناء، وأصبح النهار ينسلخ من الليل شيئاً فشيئاً، فتمدد السواد، وعم، وادلهم، وقسا، واستطال بقاؤه، فأصبح كليل امريء القيس:

www.omerelamnas.com

وليل كموج البحر مرخ سدوله
عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطى بصلبه
وأردف أعجازاً وناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي
بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فيا لك من ليل كأنّ نجومه شدت
بأمراس كتان إلى صم جندل

هنا حبلت السماء، وجاءها المخاض على حين غرة، فاندلقت المياه علينا من كل صوب، أغلقنا زجاج أبواب السيارة علينا، ودثرنا **طرد الإمتحانات** ولم نتدثر، استلبنا ثوب **المساعد**، الذي كان بحوزتنا، فعززنا به دثار **الطرد** القابع بيننا في المقعد، في شموخ، وعز، وكبرياء، وغطرسة متناهية.

رفض موسى التوقف خشية:

(أن تتدحرج صخرة من أعلى الجبال فتسقط علينا).

- **أو لم يعلم موسى أننا محاطين بالجبال من كل مكان؟**
- **ألا يمكن أن تزل صخرة وتسقط علينا ونحن متحركون؟**
- **أو لم يعلم موسى أنّ تحركنا في هذه الحالات غير مجدي؟**
- **أو لم يعلم موسى أيضاً أننا بتحركنا الذي يراه صحيحاً،**

قد نقع في متاهات التأخير والانزلاق في أمر جلل؟

توصلت منذ بداية الرحلة، إلى أنّ **موسى** لا يصلح لأن يكون قائداً لسيارة هذه الرحلة، التي لم تكن مؤهلة، وذلك لأسباب ذكرتها تتعلق بجوهره السلوكي ككائن بشري يصلح للقيام بمهام تتعلق بالإنسانية.

www.omerelamnas.com

من هنا اشتعلت في جوانحي شرارة الإرادة المعهدية، التي أضفت على سلوكي بعضاً من أوجه الهيمنة على مجريات تنفيذ خطوات الرحلة، والتخطيط لمجابهة كل ما هو متوقع.

كان العم **عبد الرحمن** يجلس خلف مقعد **موسى** مباشرة ووجهه يواجه الإتجاه المعاكس له تماماً، أي تصبح يمينه هي جهة اليسار للسائق، ويساره تصبح جهة اليمين للسائق، **(زي ركوب الجمال)**، كل من الشخصين يمنح ظهره للآخر، ويجلس **المساعد** في الجانب الآخر في تعاكس تام مع **الأستاذ/ إسحق**.

اشتد المطر، فسالت الطريق التي لا تسمح ولا تمنح فرصة لمرور سيارة أخرى في أي من الاتجاهين. نحن الآن في جوف وادٍ يمثل ماسورة كبيرة، لا حدود لها، مليئة بالمياه، التي بدا منسوبها يرتفع قليلاً قليلاً، وأصبحنا نخوض في مياه منسابة بلا رحمة ولا شفقة.

صمتنا جميعاً ولم يصمت ما بداخلنا، توجُس ودعوات، تخللها هزيم الرعود، وضجيج الصواعق المتتابع، الذي تنتج عنه بروق قلما توصف به أنها **(مفزعة) ومقزعة،(أشد من مرآى السوط الجلدي القابع بين يدي الشيخ أو الفكي)، رغم ما ينبعث منها من ضوء، فهو أكثر إفزاعاً.**

لم يخطر ببالي في تلك الساعة أن **(أدندن)** أو **(أنوني) وأقول:**

عسعس الليل وناما،

واكتسى الوادي ظلاما.

متمثلاً أمامي الفنان البارع، **خضر بشير**، أجمل من غنى **للّيل** و**(بالليل)** عندما يكون متسلقاً بين فروع الأشجار، أو جالسا عند الشواطيء.

لكن نص السؤال **يقول:**

هل كان ليل خضر بشير كليلي هذا؟

www.omerelamin.com

كما أني لا أستطيع أن أردد بعضاً من أغنية للفنان البارع **الطيب عبدالله:**

باله يا ليل الفرح

داوي القليب اللي انجرح

فهل يا ترى مثل ليلي هذا:

(يداوي القليب أم يجرحه؟)

فكيف ياترى **(أترنم) و (أنوني؟)**

لكني كنت أهمهم داخلياً **وأقول:**

(يا ود مضوي تجيبو قوي).

مما لا شك فيه أنّ ليلي لا يُبقي ولا يذر للفرح جانباً يستلقي عليه، فحتى **مقولة: (هوي يا ليلى)** أصبحت ثقيلة على اللسان، ولا تخطر ببال.

ونحن نخوض في هذا الخضم **(النوحي)** وفلكنا سيارة **(MERCURY)** صغيرة، **(مكعكعة)**، لا تزيد حمولتها عن **(إثنين طن)** خصصت لنقل البضائع والمستلزمات، لا لنقل البشر. وإذ نحن نخوض نفاجأ بصخرة كبيرة تتوسط الطريق، وهي غارقة في الماء إلى قرب قمتها.

عندها صاح **موسى**، وهو يطل برأسه خارج **القبينة**، بعد أن توقف عن السير والغيث قد زاد انهماراً، واختلط ببعض من نسمات الليل الباردة الرطبة، التي دعتنا إلى لملمة أطراف ما نرتدي من ملابس، توقياً من البرد ونغمات الرطوبة العالية، صاح **موسى** وسيارته تواجه تلك **الصخرة المرعبة:**

(يا ام ابدرهمن، يمين ولا شمال؟)

وكان يعني:

(يا عم عبد الرحمن، يمين ولا شمال؟)

خرجت الكلمات من فم عم **عبد الرحمن** متقطعة، وأسنانه تصطك من البرد، وهو مقنع الرأس حتى النخاع، **وكانت الإجابة:**

(يمين)...

يا له من يمين مهلك، فقد انعطف **موسى** بسيارته يميناً حيث سقطت السيارة في بركة غاص بداخلها الجزء الأمامي الذي يحوي الماكينة وتعطلت تماماً عن الحركة **(الدوران)**.

www.omerelamin.com

نحمد الله أن الماء لم يغمر **القبينة**، وبذلك نجا **الطرد** من البلل، ونجانا الله من الزلل. كان **عبد الرحمن** خبيراً ممتازاً في طرق النقل البري، وبالذات طريق **لقاوة**، إلا أنه **(دقس)** عند إرشاده **ل.. موسى** . ذلك لأنه كان يجلس معاكساً له فقصد **عبد الرحمن**، عندما أجاب على سؤال **موسى** الذي طرح في وقت عصيب، **(يمينه وليس يمين السائق)**.

ما يهم في الأمر أننا وقعنا في مأزق، فرأينا أن ننتظر قليلاً، علّ السماء ترحمنا، وتعمل على قفل طنابير المياه، برحمة من الله، الذي لم يفارق ذكره أفواهنا،عند التحدث، وقلوبنا عندما نصمت.

انتظرنا فانتصف الليل، الذي لم يعد يمكّننا من رؤية بعضنا، إلاّ ساعة وميض برق خاطف. أخذت السماء تقلل من سقوط فيئها المائي، وأراد القوم النزول إلى الأرض، فأوضحت لهم إنّ مثل هذه الأماكن غنية بثعابينها، وبحيواناتها المتوحشة المفترسة كالذئاب والضباع، فمن الأجدر أن يبقوا بأماكنهم، داخل السيارة، ويستخدموا البطاريات **(الطورش)**، كطارد للحيوانات المفترسة، التي تخشى الضوء، والتي تتجول ليلاً من أجل الحصول على صيد ثمين.

(دي طبعاً خبرات معهدية، تفتقت ونضجت في ذلك الوقت القاسي، فرحب بها الجميع، وبدل أن يوجهوا لي عبارات الشكر، ازدادوا خوفاً، ورغبة في حياة أطول، لكني على يقين أنهم، وفي حالتهم تلك، شكروا الله علي نعمة وجودي بينهم)

نحن الآن عند الثانية صباحاً من يوم الجمعة، علماً بأن الإمتحان، الذي نحن بصدده، سيعقد صبيحة السبت، حيث تبدأ الجلسة الأولى عند الساعة الثامنة صباحاً، في كل أرجاء السودان.

لك عزيزي القاريء أن تتصور هذا الموقف، الذي انغمس فيه إثنان من المعلمين، لا سبيل لهما الاتصال بأي جهة رسميةأو غير رسمية، يتوقعان أثناء ذلك الموقف:

- **الموت كأسوأ توقع.**
- **المرض.**

www.omerelamin.com

- **دمار أوراق الإمتحان.**
- **الوصول المتأخر لمركز الإمتحان.**

طال على أرجلنا الانثناء، **(وتململنا)** في جلستنا، ودار بخلدنا ما لم يدر من قبل، الصمت رافقنا وخيم بيننا، والكاشفات الضوئية هي ،الوحيدة، التي تتحدث، ورزاز بارد يتساقط علينا، ينهش أجسادنا كالشرارات الصغار. **صبرنا ... وصبرنا** ونحن ننتظر الصباح فأهلنا قالوا:

(الصباح رباح).

وقالوا:

(إنّ الصبر مفتاح الفرج).

وقالوا:

(أصبر فإنّ الصبر جميل).

وقالوا:

(الصبر جبر).

وجاء في الأثر:

سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبري
وأصبر حتى يأذن الله في أمري
وأصبر حتى يعلم الصبر أني
صابر على شيء أمر من الصبر

قرأت هذه العبارات، مكتوبة داخل أحد البصات **(الهرمة)**، ذات اللون البمبي **(التي اكتست به إعجاباً بأغنية الفنان الكبير/ شرحبيل أحمد، (يا اللابس البمبي)، الذي عطر بها لياليا كثيراً في ساحات المعهد).**

كانت تلك البصات تعمل ضمن فريق مواصلات العاصمة، في خط الحارة السادسة، بمدينة الثورة، والذي كان كثيرا ما يستقله طلاب **معهد المعلمين العالي،** جيئة وذهاباً ما بين **محطة الشهداء الشهيرة،(عبد الله خليل)، بأمدرمان،** وما بين **المعهد.** وما بين **المعهد** ومواطن سكن الطلاب بالثورة، عندما كانوا لا ينتظرون ساعة تحرك **الكومر(البص)**، المخصص لنقلهم من وإلى **مباني المعهد،** أو عندما لا

www.omerelamin.com

يحضرون إلى موقف **الكومر(البص)** المتفق عليه، في الوقت المحدد، المبرمج له من إدارة **المعهد.**

كانت تلك البصات رحمها الله:

(تمشي خطوة إثنين مستحيل).

وكانت:

(تمشي خطوة قدام وخطوتين ورا).

وكانت:

(تنكّس بعض الأحيان)

وكانت:

تمشي الهوينا كما

يمشي الوجي الوحل.

وكانت:

(تُحسن الوقوف أكثر من المشي).

وكنت أسمعها كثيراً:

(تقنت وتئن).

ورأيت:

(كثيراً ما يقوم السائق بغز مطرق الغارب لها كي تتحرك).

وأخالها تقول أثناء مشيتها **(الملكلكة):**

(العين بصيرة والليد قصيرة).

أو تقول:

فوقي حمل وتحتي حمل

يارب الحمل تزيل الحمل.

وهي كلمات كانت تقولها **الصيدة (الحامل)**، التي ربط على ظهرها **(أحمد)** أخو **(فاطمة)**، في أحد نصوص الأحاجي السودانية، وكان عنوان **الحجوة:**

(فاطنة وأحمد أخوها).

www.omerelammas.com

أو تقول:

ياضهري.

سكنت حركتها بعد صبر امتد طويلاً، ثم اختفت ولم تبق أثراً، ولا ندري نحن **طلاب معهد المعلمين العالي**، أين استقر حطامها بعد ذلك العناء والصبر، الذي كتبت أبياته على صفحاتها.

ها نحن في سيارتنا ال **(MERCURY)** صابرون وصامدون، فهل يكون مصيرنا **(بعد الصبر)**، كمصير باصاتنا التي أطلقنا عليها **(NO. 8)**، نسبة لرقم الخط التي كانت **تحوم** فيه.

فرجت ... فرجت رددتها فانكسر حاجز الصمت، عندما شع من أمامنا ضوء لم يكن متوقعاً على الإطلاق، إنها سيارة تقترب منا، عندها صاح زميلي **الأستاذ/ إسحق إبراهيم** الذي صمت كثيراً:

(الحمد لله).

توقفت سيارة **(MERCURY)** أمامنا، وحدثنا راكبوها بعد أن حيونا، أنّ الطريق أمامنا أسوأ مما نتصور، واقترحوا علينا الرجوع إلى الدلنج، لكنهم لما علموا بأمرنا، **انتشلونا** باستخدام الجنازير والحبال، من بركة الماء التي كنا فيها نقبع، سحبوا سيارتنا إلى الخلف فأصبحنا أمام نفس الصخرة التي أخطأ عندها العم **عبد الرحمن** الوصف، وتركونا بعد **أن** عاهدونا بأنهم سيحملوا رسالتنا **الشفهية** إلى **مساعد المحافظ للتعليم**، وإلى **مدير التعليم بالدلنج.**

تساعدنا في عملية **تنشيف البوبينا** فدارت الماكينة، وواصلنا المسيرة ولكن، هذه المرة، عن يسارالصخرة. قبل بزوغ الفجر بقليل توقفنا عند فسحة رملية صغيرة، آثرنا التوقف عندها حت الصباح.

استخدمنا البطاريات **(الكشافات)** ونور السيارة الصغير ، واقتسمنا الحراسة بيننا، لكننا لم نهنأ بذلك التقسيم كثيراً، فقد حدث ما لم يكن في الحسبان، مما أثار فينا القلق، الذي تمدد إلى حد الخوف والحذر.

ظهر أمامنا فجأة خمسة من الجمالة**(الأبالة)** المسلحين، ونحن لا نحمل من السلاح إلا أكفنا. حطوا رحالهم إلى جوارنا، وأشعلوا ناراً في قطع من الحطب كانوا

www.omerelamin.com

يحملونها في **القراف**، (وهي حاويات جلدية تستخدم في حفظ الأشياء، التي يحتاجها المسافرون في ترحالهم).

أسررت لزملائي أن مثل هؤلاء قد يكونون من **الهمباتة** لاسيما فهم مسلحون، كما أنه لا يجوز نزولهم قربنا منا، إن لم يكن هنالك هدف. وأكملت أن وجود عربة في هذا المكان قد يثير الشكوك لديهم بإمكانية وجود ثروة مالية نقدية أو بضائع أو أي مقتنيات أخرى. **(كانت الفكرة ناتج دراسة قمت بها وأنا طالب بمعهد تدريب المعلمين العالي، شملت مجموعات الهمباتة، ممارساتهم وخصائصهم).**

تشتتت أفكارنا، وتباعدت المسافات بينها، وادلهم الأمر، وجاءت الفكرة التي تحمل الخلاص **أخيراً:**

نذهب إلى هؤلاء القوم، ونحمل كل ما تبقى من طعام لدينا (الزوادة)، نشاركهم الحديث، ونشرح حالنا، ليعلموا أننا معلمين لا تجار، وأن السيارة مؤجرة ومعطلة.

جالسنا الجمّالة (الهمباتة في نظرنا)، وتشاركنا وجبة دسمة من اللحمة الناشفة (المحمّرة)، والجبن، والطعمية، التي كانت بالنسبة لهم زاداً يشتهى. وكانت بالنسبة لنا آخر زاد معنا, قدموا لنا كؤوس الشاي الأحمر (التقيل)، ذي الطعم اللاذع (قرض .. قرض)، إلا أنه في تلك اللحظة كان حلو المذاق، لأنه كان خاتمة لتطبيع العلاقات، بيننا وبين أولئك القوم، وأخذنا نحكي القصص، ونتبادل الكلمات حتى أصبح الصباح.

لملم **الجمالة** ما تبعثر من رحلهم، وساروا إلى جهة غير معلومة وسط الجبال، تصحبهم خيبة أمل كبيرة، بعد أن كانوا قد أناخوا بقيعة ساورتهم فيها الظنون، باستلاب الفريسة قبل موتها.

للإناخة طعم يختلف حسب الحال، فهاك عزيزي القاريء هذه الأبيات الشعرية العاشقة، **الولهى:**

حين أناخوا قبيل الصبح عيسهموا،

وحملوها،

وسارت بالهوى الإبل.

www.omerelamin.com

يا عيس في ترحالك الأجل.

وراهب الدير بالناقوس منشغل،
شبكت عشري على رأسي،
وقلت:
أيا راهب الدير هل مرت بك الإبل؟
فأنّ لي وشكى،
وحنّ لي وبكى،
وقال لي:
يا فتى!
إنّ البدور اللواتي جئت تطلبها،
بالأمس كانوا هاهنا،
واليوم قد رحلوا.

شتان ما بين إناخة ورحيل!

أي إناخة؟ وأي رحيل؟ عايشناهما في وسط الجبال!

في ليلة من ليالي الخريف
مثقلة بالأسى والضجر.

وأي إناخة ألهبت المشاعر، في **راهب** مشغول بقرع أجراس الكنيسة!

اليوم الجمعة ولا زلنا نبحث عن **(اللقاوة)**، نصف الساعة مضى فإذا بنا نجتاز الجبال، التي لازمتنا منذ مغادرتنا لمدينة **الدلنج**، وننحدر في وادٍ متسع تحيط به الجبال من كل صوب.

انطلق **موسى** كالإعصار صوب وسط الوادي، غمرتنا الفرحة فها نحن نزداد أملاً، وسعادة، نتوق من خلالهما للوصول إلى **لقاوة** قريباً، وفي الحقيقة لم نكن نعلم حتى تلك اللحظة أين تقبع **تلك اللقاوة.**

أمضينا ربع الساعة، في انجراف سريع، نتخطى شجيرات الوادي المتفرقة القصيرة، ننظر إليها وكأنها هي التي تندفع وتسير، في الاتجاه المعاكس لنا.

www.omerelamin.com

بينما نحن **منحشرين** وسط الآمال والتوقعات الحسنة، إذا بأصوات، واحتكاكات، وعويل حديدي، يشنف آذاننا، بكل ما هو مزعج غير مألوف، ويمزق صمتنا الجميل، وخيوط خيالنا المنسوجة لطافة ورقة، **فقد إختار أحد الإطارين الخلفيين مغادرة السيارة**، وقفز أمامنا يندفع في سرعة عالية إلى الأمام، **مثل.. حيوان (الكنجارو)**، وبعد كثير من **الشخبطة** على مجرى السير من جراء إحتكاك **الهوب** بالأرض، توقفت السيارة بحمد الله ولم يصبها داء **الانقلابات المشئومة**.

تركنا السيارة وترجلنا **(أي وقفنا على أرجلنا معتمدين عليها كل الاعتماد)**، أما ما يقصد **بـ (الرجالة)** الأخرى فلم يكن لنا منها نصيب. فقد كان الوادي مليئاً بجماعات مجتهدة في المسير، في إتجاهات مختلفة، وكان أقلهم تسلحاً من يحمل **(حربة)** يتجاوز طولها الخمسة أمتار.

جاءنا **موسى** بالخبر، بعد أن تابع الأثر الذي خلفه **الهوب** أثناء انجراره على الأرض، بأن **(السواميل)** ويقصد **(الصواميل)**، التي تحبس العجل قد **(إنهلجت)** ويعني **(إنحلجت)**، كما إنحلجت معها **الكتينة**، و **(ضاعت التيلة)**.

لا يملك **موسى** إلاّ **كتينة** واحدة أخرى، تفحصها فوجدها محلوجة أيضاً، عندما أراد استخدامها. هنا صاح **القضاء**، وأودى بحياة السيارة، فأصبحت بلا حراك. وجاء القرار أن نتركها وننجو بأنفسنا **وطردنا** العزيز الذي يزيد على وزن الأستاذ/ **إسحق** ببضع كيلوجرامات.

تركنا **السائق والمساعد وعبد الرحمن** لدى السيارة، وتبادلنا أنا والأستاذ / **إسحق**، في تناوب غير متكافيء لحمل الطرد، فكان أقوانا يصل به إلى مسافة قد لا تزيد عن العشرة أمتار، وبعد قطع أربعة أو خمسة مسافات كنا نأخذ قسطاً من الراحة، يجلس كل واحد منا علي طرف من أطرافه، نتجاذب أنفاسنا، **(زي ركوب الجمل)** الذي تطرقنا إليه مسبقاً.

ذكرني حمل **الطرد** على أكتافنا موقفاً من مواقف قصة **سيدنا عمر** رضي الله عنه مع أم اليتامى. فعندما ذهب إلي بيت مال المسلمين، وأمر الخادم أن يحمل عليه الدقيق، قال الخادم:

(عنك أم عليك يا أمير المؤمنين؟).

www.omerelamnas.com

قال سيدنا عمر منزعجاً:

(ثكلتك أمك! إحمل عليّ الدقيق، أأنت تحمل عني ذنوبي يوم القيامة؟).

هكذا كان حمل **الطرد** واجباً **مقدساً** علينا.

فمن يا ترى يحمله عنا، ونحن نتجه إلى اللقاوة بلا دليل أو رفيق؟

كنا نسير في اتجاه (**الدبال عبس)** التي تم تفسيرها على أنّ من سألناه عن موقع حكومي كالمدرسة، أو نقطة البوليس، أو قرية، كان يقصد **(الجبال الغبش)** عندما أشار بذلك بيده التي لم تكن مشغولة **بالحربة**، والتي تخيلناها قريبة، إلاّ أنها استغرقت زهاء الثلاث ساعات مشياً على الأقدام، وذلك لأنّ الوادي كان مقعراً، **(معلومة من العدسات، يا خريجين !).**

الساعة تجاوزت الحادية عشرة صباح يوم الجمعة، عندما وصلنا إلى **سوق والي**، الذي لم نجد به أحد سوى إمرأة واحدة، والتي لما سألناها أجابت بأنها زوجة **المساعد الطبي.**

كان السوق يتكون من مجموعة من **(الرواكيب)** المتراصة، المتلاصقة، في صف واحد، تغطيها من أعلى **(نتف)** وقطع بالية من الخيش، وبعض من سيقان النباتات **(والقش)**، وعندما سألنا عن العنصر البشري في **السوق**، علمنا بأنّ ذلك **السوق** يتوسط منطقة تجمع، لأشتات من **الفرقان**، والبيوتات المتناثرة في الوادي، الذي عرف **ب..(سوق والي)**، منسوباً للمنطقة، يؤمه الناس من كل صوب قبيل منتصف نهار كل جمعة، وقد أشارت عقارب الساعة، وقت سؤالنا، إلى الحادية عشرة صباحاً.

كان الجوع والفقر يحومان من حولنا، فطافت بي الذكري، يوم كان **الوليد اليافع**، يتلوى جوعاً وأرقاً، أيام المجاعات المتكررة، التي ظفرت بنا، واجتاحت مواقع متعددة، من بلادنا.

كان أقلها أثراً، ما خلفته في أحلام الأطفال **الجياع**، وسؤالهم الذي لا يتوقف، عن مصادر **الغذاء**، وإشباع رغبات **الجوعى**، وسطوة **الجوع**، ونشوب أظافره القاتلة،

www.omerelamin.com

في أجساد الصغار، ووجع **الألم** المضني، الذي أنهك الحياة من حولهم، فتذكرت ما أنشدته **يومها (على لسان طفل جائع):**

حين صرخت على الدنيا،
وبعيني ذاك البريق...
كواحد من ألف يولدون،
في وسط الظلام...
كواحد من هؤلاء الوافدين،
العابرين.....

حين صرخت ما ارتفعت بيارق ...
ما فاضت الأنهار في المشارق،
فأنا لست رسولا من عند الإله،
لست المسيح بن مريم.

فأبي في الزرع يحصد..
وسيعود من بعد الغروب،
مكللاً بالعشب...
مرصعاً ببقايا طين،
سيعود من بعد الغروب...
كالطيف القتيل،
متلفعاً بالصمت الدفين.

فالجوع يملأ كل أرجاء المكان،
والفاقة العمياء ،
تستل السيوف البارقات القاتلات..
بكل أرجاء المكان،
والصوت يعلو هناك يبعثه الأنين...

www.omerelamnas.com

أبتاه!
أما حصدت اليوم بعضاً من رغيف؟
(الزرع ضنّ بني)،
(والشاة أدركها الضياع).

أماه!
أما من قشرة فول،
أو بقايا من دقيق؟

بالأمس كانت هاهنا،
تحت الفراش،
قطعة خبز ...
كانت تجوس في هذا الفناء،
وبداخل ذاك الإناء.

وأنام في خجل الوليد المستكين،
أحلم بالرغيف وبالدقيق..
وعودة الطيف القتيل ،
مشمراً... متلفعاً،
بعد الغروب.

كنا ونحن نتحاور مع تلك الشابة الوحيدة في المنطقة، نقف أمام **(قطية)** منفردة، بجانبها مبنى شيدت حيطانه من ألواح **(الزنك)**، فعرفنا مؤخراً أنه **(طاحونة)**. سألنا عن **المساعد الطبي**، فأجابنا بحضوره الفوري، ليحيينا و**(يقالدنا)** بحميمي بالغة، وهو يشير إلينا بدخول **(القطية)**، التي علمنا فيما بعد بأنها **العيادة، وغرفة النوم، والمطبخ، والاستقبال معاً.**

www.omerelammas.com

تقوم **القطية** بأربعة مهام كلها كبيرة، فتذكرت حصان أمريء القيس الذي وصفه الشاعر بأربعة صفات أيضاً، كلها كبيرة إذ **يقول:**

مكرٍ، مفرٍ، مقبلٍ، مدبر، ٍ معاً

كجلمود صخر حطه السيل من عل.

حكينا قصتنا **للمساعد الطبي**، الذي أنستني أحداث الزمان اسمه، لكن مما أذكره أنه أحد أقارب زميلنا **حماد عبده إسماعيل**، خريج معهد المعلمين العالي ، والذي كان لنا بمثابة الشفاعة لدى **المساعد الطبي** بما غمرنا به من كرم وحسن ضيافة. وهكذا رافقنا **معهد المعلمين العالي** في ترحالنا وفي حلنا، بتلك البقعة النائية عن موطننا **بمدينة بالأبيض.**

أدخلنا **طردنا** الجميل أمامنا داخل **القطية**، بعد أن علم مضيفنا بما يحويه، بين طيات أغلفته المتعددة من الورق، والقماش، والخيش، وثوب **المساعد**، وطمأننا على أنه سيظل في أيدي أمينة، إلى أن تحين ساعة رحيلنا، التي أصبحت **مجهولة** تماماً لدينا.

أخبرنا محدثنا ونحن نتناول طعام الإفطار، المكون من **العصيدة، والمرقة، واللحمة**، التي أحضرناها من جزارة بأحد الرواكيب، حصلنا عليها صدفة، عندما علمنا بأنّ بقرة **انكسرت** وذبحت، وأخالها بقرة عجوز، وذلك من سمات لحمتها التي استعنا على أكلها باستخدام السكين، علماً بأنها غليت في النار غلياً جيداً.

أذكر أن سعر الكيلو كان بمبلغ عشرة قروش، **(يعني الجنيه يجيب عشرة كيلو من اللحمة)** أما سعر كيلو اللحمة اليوم، للأبقار التي لا يشوبها كسر ظاهري،**(بلغ (**27000**) جنيهاً، أي أنّ سعر الأقية من اللحمة يعادل أكثر من 1000 جنيهاً، ويعني ذلك أنّ ربع أقية اللحمة يساوي مبلغ 250 جنيهاً، وهو المبلغ الذي يمكن أن يشترى به الشاري عدد خمسة وعشرين كيلو من لحمة سوق والي).** لامنا **مضيفنا** كثيراً علي تكبدنا مشاق شراء اللحمة، لأنه كان قد اشتراها مسبقاً، مدعماً حديثه بأنها لحمة بقرة مكسورة.

حضر وجبة الإفطار معنا، العم **عبد الرحمن** والسائق **موسى**، بعد أن تركا **المساعد** في مكان الحادث، ليقوم بحراسة السيارة، كان مظهرهما يوحي بأنّ رأيهما

قد **(تلف)**، كانا مرهقين تماماً من طول المشوار في سبيل الوصول إلى **(الدبال العبس)**، زائداً ما عاناه السائق **موسى**، أثناء محاولاته الدائبة، بغية إصلاح العطب، الذي حل بسيارته الفارهة.

أما فيما يختص بالحديث عن **لقاوة أو(اللقاوة)**، فقد أخطرنا **مضيفنا** الكريم بأنّ هنالك **(لوري)** سيحل بوادينا بعد ساعة من الآن **(طبعاً بالتقريب)**، يحمل في داخل صندوقه عددا من رواد السوق، الذين يعمل على تجميعهم من مناطق مشتته، في داخل الوادي، ومن ثم يذهب بالبعض منهم إلى مدينة **الدلنج**، فاقترح علينا أن نتفاوض مع صاحب أو سائق **(اللوري)**، في إمكانية توصيلنا إلى **لقاوة**.

ساعتها اتسعت دائرة الأمل أمامنا، وتخيلنا أننا كنا **(ننوني)** و**(نترنم)** برائعة الفنان المبدع، **ود كردفان، الأستاذ/ عبد القادر سالم:**

اللوري حل بي

دلاني في الودي.

فعلاً حل **اللوري** في ساحة **السوق** عند الواحدة ظهراً **بالتقريب، (لكنه للأسف ما حلّ بي ولا دلاني في الودي الذي أحلم به)**.

كان كل شيء لدينا يوصف بـ**(التقريب)**، **(علماً بأنّ التقريب في اللغة، هو نوع من أنواع المشي لدى الذئاب "المرافعين")**، لأننا كنا نسابق الزمن، ونتطلع إلى الغروب أو الشروق فقط، حيث أنّ الفارق بينهما أصبح خيطاً واهياً ضعيفاً، لا سيما ونحن محتارين **نحل ونربط** فيما **بين:**

- **طول المسافة التي تفصلنا عن لقاوة.**
- **الحصول على الوسيلة المناسبة للوصول لمركز الإمتحان.**
- **سلامة وأمن الطرد القابع داخل القطية.**
- **علاوة على صحتنا التي نسينا أمرها.**

إنطلقنا جميعاً صوب **اللوري**، وجدنا **السائق** خلف عجلة القيادة ينتظر لحظة نزول الركاب، ومن ثم يتحرك بدفعة أخرى، نحو مدينة **الدلنج**. لم يتحدث كثيراً عندما طرحنا له مضمون حالنا، وافق على الفور، لكن بشرط أن ندفع له مبلغ

www.omerelammas.com

أربعين جنيهاً مقدماً. وافقنا نحن أيضاً عل العرض، ولكنّا أخبرناه بأننا لا نملك ذلك المبلغ **الكبير** حالياً، لكن بإذن الله، سنسلمه ما طلبه فور وصولنا إلى **لقاوة**.

(أنا لا أتعامل مع الحكومة أبداً).

قالها في صلف وافتراء، استخدمنا معه كل أساليب **الرجاء، والوطنية، والإنسانية، ومستقبل أبناء المنطقة، والمسؤولية**، وغيرها مما تعلمناه، وتدربنا عليه، في **معهد تدريب المعلمين العالى**، فلم نفلح أبداً.**(يظهر أنّ الرجل مضروب حكومة، بالضربة القاضية، في زمان سابق)**

نوى **السائق** التحرك عنا وعن كلامنا **(الفارغ)** بالنسبة له، فما كان لدينا إلاّ أن نرسل معه خطاباً لإدارة التعليم **بالدلنج** يحوي وصفاً كاملاً، لما حلّ بنا ولما هو متوقع في الساعات القادمات، التي تفصل في ما بيننا وبين الجلسة الأولى للإمتحان.

شكرنا الرجل على موافقته لحمل الرسالة، لكني لم أكن متفائلاً من أنه سيدسها في يد المسئولين، بل قد يقوم بدسها في جيبه إلى حين، إن لم يكن قد مزقها، بعد أن أدار عجلة القيادة في الاتجاه المعاكس لنا.

رجعنا إلى **القطية** نجرر أذيال الخيبة، **نلعن** زماننا **ونستغفر**، **نكيل** اللوم على صاحب العربة ال **...(MERCURY) ونستغفر**، **نعرّي** بالحديث ساحات المسئولين بالتعليم **ونستغفر**، **نضرب** كفاً بكفٍ **ونؤف ونستغفر**، **نؤدي** صلاة مقصورة ومجموعة **وندعو**.

غادرتنا الشمس ونحن ثلاثة رابعنا زوجة **المساعد الطبي**، **(تذكرت أصحاب الكهف)** فقرأت **سورة الكهف** لأني كنت أحفظها، فهي سورة تحفظ قراءها من الجمعة إلى الجمعة.

غادر الجميع المكان **العم عبد الرحمن** رجع في **اللوري** إلى **الدلنج، والسائق موسى** رجع في **اللوري** إلى حيث تقيع سيارته، وغادر البائعون والمشترون المكان، فأصبح ثلاثتنا مفترشين الأرض في حيرة، ملتحفين السماء في وجوم، ليس هنالك من يسامر، أو يحكي إلاّ النجوم، والظلام، والسحب العابرة، التي لا نتمكن من رؤيتها،

www.omerelamas.com

والتي تنذر بالوعيد، **وأصوات** تدخل مسامعنا كأنها هدير ماكينات السيارات، المندفعة نحونا وما هي بالواقعية لكن يقول **المثل:**

(حلم الجعان عيش).

تذكرت في تلك الليلة الشاعر العربي عمر بن أبي ربيعة، حين ما خرج متوجساً من خدر محبوبته، في ليلة من لياليه الحالمة، التي كان يصف حاله فيها وهو خارج من الخدر في تلك الليلة **المقمرة**، التي يخاف العشاق دائماً من كشف أمرهم ومغامراتهم **فيها:**

وكان مجني دون ما كنت أتقي
ثلاث شخوص كاعبان ومعصر

فلما أجزنا ساحة الحي قلن لي
أما تتقي الأعداء والليل مقمر؟

إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا
لكي يحسبوا أنّ الهوى حيث تنظر

كان **بن أبي ربيعة** ما بين إثنين يتلذذ في ليلته تلك، وكنت ما بين إثنين أتعذب في ليلتي الليلاء. إنّ ما يجمعني **بابن أبي ربيعة** في ذلك الوقت هو أنّ اسمي **عمر** و اسمه **عمر** وليس إلاّ.

فلك عزيزي القاريء، أن تفرق ما بين **المجن والمجن، والهم والهم، والحال والحال**، فستجد الفرق كبيراً جداً، لا يترك مجالاً للجمع والتشبيه بين ليلتين، إحداهما مقمرة، والأخرى تتدثر بالسواد.

حدثنا **مضيفنا** أنّ المسافة إلى **لقاوة** يبلغها الجمل الأصهب**(جمل السباق)** في يومين كاملين، ولا أمل لوجود جمال للإيجار في منطقته تلك**(حتى لو كانت جمال عصارات)**، وبذلك **(قطع علينا العشم)**، في وجود أية وسيلة أخرى للتنقل، وأنّ طريق **والي** هذا لايستخدمه **(عاقل)** في الخريف إطلاقاً، فحمّلنا عملية اختيارنا الخطأ لهذا الطريق، **وفي الخريف يالذات.** تنصلنا من المسؤولية ورمينا بها على إدارة التعليم

www.omerelamnas.com

بالدلنج والعم **عبد الحمن** والسائق **موسى**، ولكن هل يجدي ذلك، ويغير من الأمر شيئا؟.

إنتصف ليلنا ونحن الاثنين ومضيفنا، الذي أفسدنا عليه ليلته تلك، نحكي...ونحكي.. ونحكي، من غير أن يغمض لنا جفن، تحدثنا حديثاً مسنفيضاً عن **الخرافات، والبعاعيت، والحيوانات المفترسة، والثعابين، والعقارب، والجن، والشياطين، وود أم بعلو، والغول، والبعشوم وعن كل ما هو مخيف، ومتوقع في تلك الليلة.**

إلاّ أننا لم نتذكر بطولات عنترة بن شداد، وأبو زيد الهلالي، وود النمير والطير الخداري. كما لم نتطرق إلى الأبطال الإسلاميين، أمثال علي بن أبي طالب، وخالد بن الوليد، ولا أبطال العروبة أمثال عمرو بن معديكرب ولا فرسان السودان أمثال رجالات المهدية وأبطال جمعية اللواء الأبيض وغيرهم.

لكن ما أذكره جيداً، أننا تطرقنا في حديثنا إلى آية قرآنية واحدة، من سورة الملك هي:

{وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ }

صدق الله العظيم، سورة الملك (آية 5)

حيث لم نكن نشاهد أمامنا من وميض إلاّ وميض النجوم المتراصة، والتي لا تتباعد فيما بينها، إلاّ بمسافات، قد تتيح للشياطين الوقوف، لتتمكن النيازك من رجمها، وذلك عندما (يفج السحاب قليلاً).

من غير ما هو متوقع، شع نور من جهة موقع مدينة **الدلنج**، وما هي إلا دقائق حتى اقترب دوي سيارة تتجه نحونا، لم يساورنا الشك أبداً، من أنها إغاثة عاجلة، من أحد الجهات التي يهمها أمر **التربية والتعليم، وأمر الامتحانات.**

لكنّا، وفي نفس الوقت، توقعنا الأسوأ، فربما تكون سيارة عابرة، أخطأت طريقها الصحيح، كما حدث لنا. لذا لزم الاحتياط، فكان **الاقتراح** أن ننتشر **(ننشر) "يعني زي شر الملابس في الحبل"** في عرض الطريق، لنضيّق الخناق على

www.omerelamin.com

السائق، وبذلك نجبره على التوقف. فتم لنا ذلك، وإذا نحن ب **(لوري)** آخر يحلّ في **(الودي)** وهو مليء بالركاب .

صاح بنا السائق:

(باله طريق لقاوة من وين؟)

كان ذلك **أجمل وأنفع** سؤال أسمعه منذ أن غادرت **الدلنج،** فانبريت **للسائق** وأخبرته بأنا سنقوده إلى **لقاوة،** ففرح بذلك الخبر ورحب بنا نحن الإثنين، وأخبرناه بأمرنا، فأجلسنا إلى جانبه في المقعد الأمامي، بعد أن أخلاه لنا من الركاب.

عمدت إلى **مضيفنا** وسألته عن جغرافية الطريق إلى **لقاوة** وتضاريسها، فشرح لي كل شيء، فأصبحت من توها، أنا **القائد، والدليل** المعتمد،**(بذلك أصبحت عبد رحمن جديد، بجانب السائق، الذي لم أستخدم معه تجربة ركوب الجمل، إنما جنباً إلى جنب، حتى أستطيع أن أتبين يميني من يساري).** ومن هنا دخلنا في مسيرة وحقبة جديدة، من رحلتنا، متيممين صوب هدفنا المجهول **لقاوة** وإن شئت فهو **اللقاوة.**

عند الساعات الأولى من صباح يوم السبت، أطل ركبنا الميمون على مدينة **لقاوة،** التي كانت تعيش في ظلام دامس، ما عدا تلك الأعداد الكبيرة المتناثرة من **(الفوانيس)،** التي كانت تملأ الأمكنة، والتي توجهت جميعاً نحونا، في سرعة فائقة. هجم حاملوها على **(اللوري)** الذي حلّ أخيراً في **(الودي)** المطلوب.

كان لذلك الحشد **سؤال واحد فقط،** حسب ما لملمت من أشتات الحديث، الذي تشتت، وتبعثر، علي مسمعي، الذين أصبحا يحملان طبلاً سميكاً، ذا رنين **(متختخ)** وكان السؤال **يقول:**

(ما لاقتكم عربية حكومة في الطريق؟)

فهمنا **(الشغلانة) وكان ردنا:**

(نحن بتاعين الامتحان).

لم نتلق بعد ذلك إلاّ عويل النساء، وصراخ الصبية، وهمهمات الكبار من سكان المدينة، فساد الهرج والمرج وضوضاء غير مألوفة. في أثناء ذلك تقدم نحونا

www.omerelamnas.com

الأستاذ شبور، وقد علمنا فيما بعد أنه **ناظر المدرسة**، الذي أحسن إستقبالنا، وأنزلنا في المكان المعد لنا مسبقاً، كمقر لضيافتنا.

على الفور سلمنا **الأستاذ/ شبور**، ذلك **الطرد (المفتري)**، الذي أنهكنا وأنهك أكتافنا، وعلمنا كيف نصبر عليه، وعلى من كلفونا بتلك المهمة. قام **الأستاذ الناظر** بإدخاله في أحد **الدواليب (جمع دولاب وليس الدواليب القبيلة)**، وأمن على حراسته لفترة ساعتين قادمتين، إذ أنّ الصباح قد بدا، وأذن في الناس المؤذن، بأن **حيا على الصلاة**، وبعدها انخرطنا في أداء صلواتنا، التي كانت من بينها **صلاة الشكر**، وأسدلنا الستار على صفحة **مضنية وممتعة**، عند سردنا لبعض من مقاطعها في **مستقبل حياتنا**.

بعد إكمال مجريات الامتحانات في وقتها المحدد لها، في فترة تخللتها إصابتي **بالملاريا**، والتي صاحبتها مكابدة **مضنية**، أثناء الرجوع **لمدينة الأبيض**، بعد وصول **موسى** إلى **لقاوة** بطريقة **مذهلة**، وكيف أنّ سيارته التي لم يحسن صيانتها، تعطلت بنا مرة أخرى، في **طريق الهواء ،(بين كادقلي والدلنج)**، وكيف أنّا أمضينا ليلة أخرى في العراء، هذه المرة، وليس بين الجبال، وكيف تم إسعافنا بسيارة أخرى، من **لقاوة**.

تدرجت بنا الخطوب حتى عدنا إلى **مدينة الأبيض**، نحمل في **طردنا** الجديد، **أوراق الإجابة**. ونحمل بين جوانحنا **خواطراً مكسورة**، أنهكتها بقايا من الذكريات **الموجعة**، المملوءة **أشجاناً**، وبعض الوقت **آلاماً**.

وبعد مرور أسبوع كامل من تأريخ عودتنا، دسوا بين يدي مبلغ (7) **سبعة جنيهات (الجنيه يحك الجنيه)**، كانت عبارة عن **مستحقاتي، وأجري** الذي استوفيته **من إدارة التعليم بالأبيض (الامتحانات)**، نظير ما قمت به من عملٍ.

(هنا نسدل الستار، عزيزي القاريء،

www.omerelamin.com